



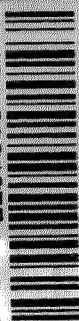
قطاع الثقافة

السيرة النبوية

لأبْنِ إِسْحَاقَ

المجلد الثاني الجزء ٧

0104873



Bibliotheca Alexandrina

29

V2

— ابن إسحاق — ٢٥٣ —

أمر أموال هوازن وسباياها وعطايا المؤلفة قلوبهم منها

وإنعام رسول الله ﷺ فيها

ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دحنا (١) حتى نزل بالجعرانة فيمن معه من الناس ، ومعه من هوازن سبى كثير ، وقد قال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف : يا رسول الله ادع عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اهد ثقيفاً واثت بهم .

ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة ، وكان مع رسول الله ﷺ من سبى هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الإبل والشاة ما لا يدرى ما عدته .

قال ابن إسحاق : فحدثني عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عمرو ، أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا فقالوا : يا رسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامن علينا ، من الله عليك . قال : وقام رجل من هوازن ثم أحد بنى سعد بن بكر ، يقال له زهير ، يكنى أبا صرد . فقال : يا رسول الله ، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر ، أو للنعمان ابن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به . رجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين .

قال ابن إسحاق : فحدثني عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عمرو ، قال : فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبنائنا ، فهو أحب إلينا ، فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين برسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا فأسألكم عند ذلك ، وأسأل لكم ، فليبا صلي رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

(١) دحنا : موضع بالطائف .

— ٢٥٤ — ابن إسحاق —

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس أما أنا وبنو سليم فلا . فقالت بنو سليم : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

قال : يقول عباس بن مرداس لبني سليم : وهتتموني . فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض ، من أول سبي أضييه . فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم . قال ابن إسحاق : وحدثني أبو وجزة يزيد بن عبيد السعدي : أن رسول الله ﷺ أعطى على بن أبي طالب رضي الله عنه جارية ، يقال لها ريطة بنت هلال بن حيان بن عميرة بن هلال بن ناصرة بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر ، وأعطى عثمان بن عفان جارية . يقال لها زينب بنت حيان بن عمر بن حيان ، وأعطى عمر بن الخطاب جارية ، فوهبها لعبد الله بن عمر ابنه .

قال ابن إسحاق : فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر ، عن عبد الله ابن عمر ، قال : بعثت بها إلى أخوالي من بني جمح ، ليصلحوا لي منها ، ويهيئوها ، حتى أطوف بالبيت ، ثم آتيهم وأنا أريد أن أضييها إذا رجعت إليها . قال فخرجت من المسجد حين فرغت ، فإذا الناس يشتدون ، فقلت : ما شأنكم ؟ قالوا : رد علينا رسول الله ﷺ نساءنا وأبنائنا ، فقلت : تلکم صاحبکم فی بنی جمح ، فاذهبوا إليها فخذوها . فذهبوا إليها ، فأخذوها .

قال ابن إسحاق : وأما عيينة بن حصن ، فأخذ عجوزاً من عجائز هوازن ، وقال حين أخذها : أرى عجوزاً إنني لأحسب لها في الحى نسبا ، وعسى أن يعظم فداؤها . فلما رد رسول الله ﷺ السبايا بست فرائض ، أبى أن يردّها ، فقال له زهير أبو صرد : خذها عنك ، فوالله ما فوها ببارد ، ولا ثديها بناهد ، ولا بطنها بوالد ، ولا زوجها بواجد ^(١) ، ولا درها بماكد ^(٢) . فردّها بست فرائض حين قال له زهير ما قال ، فزعموا أن عيينة لقي الأقرع بن حابس فشكا إليه ذلك ، فقال : إنك والله ما أخذتها بيضاء غريرة ، ولا نصفًا وثيرة ^(٣) .

(١) الواجد : الحزين . (٢) الماكد : الغزير .

(٣) غريرة : متوسطة السن ، نصفًا : متوسطة السن أيضًا ، وثيرة ، سمينة .

• إسلام مالك بن عوف :

وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن ، وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل ؟ فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله ﷺ : أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل ، فأتى مالك بذلك ، فخرج إليه من الطائف . وقد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال : فيحبسوه ، فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس له ، فأتى به إلى الطائف ، فخرج ليلاً ، فجلس على فرسه ، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس ، فركبها ، فلحق برسول الله ﷺ ، فأدركه بالجرعانة أو بمكة ، فرد عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل (١) ، وأسلم فحسن إسلامه ، فقال مالك بن عوف حين أسلم :

ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله في الناس كلهم بمثلٍ مُحَمَّدٍ
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ومتى تشأ يُخبركَ عَمَّا في غَدٍ
وإذا الكَتِيبَةُ عَرَدَتْ أنيَابَهَا بالسهمى وضرب كل مُهَنَّدٍ
فَكَانَهُ كَيْثٌ عَلَى أَشْـبَالِهِ وَسَطُ الهَبَاءِ خَادِرٍ فِي مَرَصَدٍ

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وتلك القبائل : ثماله وسلمة (٢) وفهم فكان يقاتل بهم ثقيفاً ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، حتى ضيق عليهم فقال أبو محجن (٣) بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي :

هَابَتِ الأَعْدَاءُ جَانِبَنَا ثُمَّ تَغَزَوْنَا بَنُو سَلَمَةَ
وَأَتَانَا مَالِكٌ بِهِمْ نَاقِضًا لِلْعَهْدِ وَالْحُرْمَةِ
أَتُونَا فِي مَنَازِلِنَا وَلَقَدْ كُنَّا أُولَى نَقَمَةٍ

(١) وهكذا دائماً كانت أخلاق رسول الله ﷺ الوفاء بالوعد .

(٢) قال السهيلي في الروض الأنف : هكذا تقيد في النسخة - بكسر اللام - والمعروف في قبائل قيس سلمة بالفتح .

(٣) هو مالك بن حبيب ، وقيل : عبد الله بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف ابن عقدة بن غيرة بن عوف بن قيس الثقفي .

• تقسيم الفىء :

قال ابن إسحاق : ولما فرغ رسول الله ﷺ من رد سبايا حُنين إلى أهلها ركب ، واتبعه الناس يقولون : يا رسول الله ، اقسم علينا فيأنا من الإبل والغنم ، حتى الجئوه إلى شجرة ، فاخترتفت عنه رداءه ، فقال : أدوا على رداي أيها الناس ، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمةً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً ، ثم قام إلى جنب بعير ، فأخذ وبرة من سنامه ، فجعلها بين أصبعيه ، ثم رفعها ، ثم قال : أيها الناس ، والله مالى من فيكم ولا هذه البرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخييط ^(١) ، فإن الغلول ^(٢) يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً ^(٣) يوم القيامة قال : فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر ، فقال : يا رسول الله ، أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لى دبر . فقال : أما نصيبى منها فلك قال : أما إذا بلغت هذا فلا حاجة لى بها ، ثم طرحها من يده ^(٤) .

قال ابن إسحاق : وأعطى رسول الله ﷺ المؤلفلة قلوبهم ، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم ، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير ، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير ، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كعدة ، أخا بنى عبد الدار مائة بعير .

قال ابن إسحاق : وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير ، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير ، وأعطى حويطب بن عبد العزى بن أبى قيس مائة بعير ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفى ، حليف بنى زهرة مائة بعير ، وأعطى عيينة بن حصن بن

(١) الخياط : الخيط : والمخييط : آلة الخياطة (الإبرة) .

(٢) الغلول : الخيانة . (٣) الشنار : الأمر القبيح الشنيع .

(٤) قال ابن هشام : وذكر زيد بن أسلم ، عن أبيه : أن عقيل بن أبى طالب دخل يوم حُنين على امرأته فاطمة بنت شيبه بن ربيعة ، وسيفه متلطح دما . فقالت : إنى قد عرفت أنك قد قاتلت ، فماذا أصبت من غنائم المشركين ؟ فقال : دونك هذه الإبرة تخطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع منادى رسول الله ﷺ يقول : من أخذ شيئاً فليرده ، حتى الخياط والمخييط . فرجع عقيل ، فقال : ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ، فأخذها ، فألقاها فى الغنائم .

— ابن إسحاق — ٢٥٧ —

حذيفة بن بدر مائة بعير ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير . وأعطى مالك ابن عوف النصرى مائة بعير ، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير ، فهؤلاء أصحاب المئين .

وأعطى دون المائة رجالاً من قريش ، منهم مخزومة بن نوفل الزهري ، وعُمير ابن وهب الجُمحي ، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي ، لا أحفظ ما أعطاهم وقد عرفت أنها دون المائة ، وأعطى سعيد بن يربوع بن عنكشة بن عامر بن مخزوم خمسين من الإبل ، وأعطى السهمي خمسين من الإبل .

• شعر ابن مرداس :

قال ابن إسحاق : وأعطى عباس بن مرداس أباعر فسخطها ، فعاتب فيها رسول الله ﷺ ، فقال عباس بن مرداس يعاتب رسول الله ﷺ :

كَانَتْ نَهَابًا تَلَا فَيْتَهَا	بِكُرَى عَلَى الْمَهْر فِي الْأَجْرِ
وَإِقْظَى الْقَوْمَ أَنْ يَرْقَدُوا	إِذَا هَجَّعَ النَّاسَ لَمْ أَهْجَعْ
فَأَصْبَحَ نَهَبِي وَنَهَبَ الْعُبَيْ	سَدَّ بَيْنَ عَيْنَةِ وَالْأَقْرَعِ (١)
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تَدْرٍ	فَلَمْ أُعْطِ شَيْئًا وَلَمْ أَمْنَعْ
إِلَّا أَفَائِلَ أُعْطِيَتْهَا	عَدِيدَ قَوَائِمِهَا الْأَرْبَعِ (٢)
وَمَا كَانَ حَصْنٌ وَلَا حَابِسٌ	يَفُوقَانِ شَيْخِي فِي الْمَجْمَعِ (٣)
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرٍ مِنْهُمَا	وَمَنْ تَضَعُ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعُ

قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به ، فاقطعوا عني لسانه ، فأعطوه حتى رضى ، فكان ذلك قطع لسانه الذى أمر به رسول الله ﷺ (٤) .

(١) العبيد : اسم فرس عباس بن مرداس .

(٢) الأفائل : أصاغر الإبل مفردا أفيل . (٣) شيخى : أى أبى وجدى .

(٤) قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم أن عباس بن مرداس أتى رسول الله ﷺ ، فقال له الرسول ﷺ : أنت القاتل .

« فأصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة » فقال أبو بكر للرسول ﷺ : أشهد أنك كما قال الله : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ وإنما قال أبو بكر ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ لم ينطق البيت موزوناً لأنه لا يقول الشعر وإن كان يستمعه ويستجده .

• لماذا لم يعط النبي ﷺ جُعيلًا :

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي : أن قائلًا قال لرسول الله ﷺ من أصحابه : يا رسول الله ، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة ، وتركت جُعيل بن سراقَة الضمري ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما والذي نفس محمد بيده لجُعيل بن سراقَة خير من طلاع الأرض ، كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، ولكني تألفتُهما ، ووكلت جُعيل بن سراقَة إلى إسلامه .

قال ابن إسحاق : وحدثني أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ، عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل ، قال : خرجت أنا وتليد بن كلاب الليثي ، حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهو يطوف بالبيت ، معلقًا نعله بيده ، فقلنا له : هل حضرت رسول الله ﷺ حين كلمه التميمي يوم حنين ؟ قال : نعم ، جاء رجل من بني تميم ، يقال له ذو الخويصرة ، فوقف عليه وهو يعطى الناس ، فقال : يا محمد ، قد رأيتُ ما صنعت في هذا اليوم : فقال رسول الله ﷺ : أجل . فكيف رأيت ؟ فقال : لم أرك عدلت ، قال فغضب النبي ﷺ ، ثم قال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟ فقال عمر ابن الخطاب : يا رسول الله ، ألا أقتله ؟ فقال : لا ، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ينظر في النصل^(١) ، فلا يوجد شيء ، ثم في القدح^(٢) ، فلا يوجد شيء ، ثم في الفوق^(٣) ، فلا يوجد شيء ، سبق الفرث ، والدم^(٤) .

(١) النصل : حديد السهم .

(٢) القدح : السهم .

(٣) الفوق : طرف السهم .

(٤) وهذا الحديث النبوي الشريف من أعلام النبوة وهي التي أخبر بها النبي ﷺ قبل حدوثها وأنها ستحدث بعده ، وقد حدثت بالفعل كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ ، وهذا الحديث يتحدث عن ظهور أناس - هم الخوارج ومن وافقهم - يتعمقون في الدين - لكن ليس تعمقًا برفق - ولذلك سهل أن يخرجوا من الدين بسرعة كما يخرج السهم من الرمية فلا يأخذ معه شيئًا ، وصدق الرسول ﷺ حين حذر من مثل هذا قائلًا : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » نسأل الله - الهداية والرشاد والتوفيق والسداد لجميع المسلمين .

— ٢٥٩ — ابن إسحاق

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن علي بن الحسين أبو جعفر بمثل حديث أبي عبيدة ، وسماء ذا الخويصرة .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي نجيح ، عن أبيه بمثل ذلك .

• مقالة رسول الله ﷺ في الأنصار :

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطي من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب^(١) ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه ، فدخل عليه سعد بن عباد ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم . لما صنعت في هذا الفىء . الذى أصبت ، قسمت في قومك . وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب . ولم يك في هذا الحى من الأنصار منها شيء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي قال : فاجمع لى قومك في هذه الخطيرة قال : فخرج سعد ، فجمع الأنصار في تلك الخطيرة . فجاء رجال من المهاجرين فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار : مقالة بلغتني عنكم ، وجدة^(٢) وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : ألا تحييوننى يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نحبيك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل . قال ﷺ : أما والله لو شئتم لقلتكم ، فلصدقتكم ولصدقتكم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار

(١) يقصد من أعطاهم الرسول ﷺ وهم : بنى عدى بن كعب ، بنى جمح بن عمرو ، ومن بنى سهم ومن بنى عامر بن لوى ومن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة ، من بنى قيس ، ومن بنى عامر بن صعصعة ، ومن بنى عامر بن ربيعة ومن بنى نصر بن معاوية ، ومن بنى سليم بن منصور ، ومن بنى غطفان ، ومن بنى تميم .
(٢) الجدة : مصدر وجد ، أى وجدتم في أنفسكم شيئا .

— ٢٦٠ — ابن إسحاق —

فى أنفسكم ، فى لعاعة (١) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأة من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار (٢) .

قال : فبكى القوم حتى أخضلوا (٣) لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرقوا .
* * *

عَمْرَةُ الرَّسُولِ مِنَ الْجَعْرَانَةِ

واستخلافه عتاب بن أسيد على مكة ، وحج عتاب بالمسلمين سنة ثمان (٤) .

قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمراً ، وأمر ببقايا الفء فحبس بمجنة ، بناحية من الظهران ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة ، واستخلف عتاب بن أسيد على مكة ، وخلف معه معاذ ابن جبل يفقه الناس فى الدين ، ويعلمهم القرآن ، واتبع رسول الله ﷺ ببقايا الفء .

قال ابن إسحاق : وكانت عمرة رسول الله ﷺ فى ذى القعدة ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فى بقية ذى القعدة أو ذى الحجة (٥) .

(١) اللعاعة : الخصب ، أو الشجرة الخضراء ، شبه بها نعيم الدنيا .

(٢) تكفهم هذه الدعوة فهى خير من ملء الأرض ذهباً ، أن دعا لهم بالرجمة ، والمغفرة ، ولأبنائهم ولذريتهم ، وهذه هى السعادة الحقيقية .

(٣) أخضلوا : أى بلوا .

(٤) قال ابن هشام : وبلغنى عن زيد بن أسلم أنه قال : لما استعمل النبى ﷺ عتاب ابن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً ، فقام فخطب الناس ، فقال : أيها الناس ، أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله ﷺ درهماً كل يوم فليست بى حاجة إلى أحد .

(٥) قال ابن هشام : وقدم رسول الله ﷺ المدينة لست ليالٍ بقين من ذى القعدة فيما زعم أبو عمر المدنى .

— ٢٦١ — ابن إسحاق

قال ابن إسحاق : وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه ، وحج بالمسلمين تلك السنة عتاب بن أسيد ، وهى سنة ثمان ، وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم فى طائفهم ما بين ذى القعدة إذا انصرف رسول الله ﷺ إلى شهر رمضان من سنة تسع .

* * *

أمر كعب بن زهير بعد الانصراف عن الطائف

ولما قدم رسول الله ﷺ من منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبى سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجلاً بمكة ممن كان يهجو ويؤذيه ، وأن من بقى من شعراء قريش ، ابن الزبعرى ، وهيرة بن أبى وهب قد هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة ، فطر (١) إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجاتك من الأرض ، وكان كعب بن زهير قد قال :

فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتَ وَيْحَكَ هَلْ لَكَ ؟	أَلَا أبلغَا عني بُجيراً رسالاً
على أى شىء غـيـر ذلك ذلكا	فبين لنا إن كنت لست بفاعِل
عليه وما تُنفى عليه أبا لكَا	على خلقي لم ألف يوماً أبا لهُ
ولا قائل أما عثرت لعالـكَا (٢)	فإن أنت لم تفعل فلست بأسف
فأنهلك المأمون منها وعـلـكَا (٣)	سقاك بها المأمون كاساً رويّة

قال : وبعث بها إلى بجير ، فلما أتت بجيراً كره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها ، فقال رسول الله ﷺ لما سمع : « سقاك بها المأمون » صدق وإنه لكذوب ، أنا المأمون . ولما سمع : « على خلق لم تلف أمّاً ولا أبا عليه » قال : أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه .

(١) فعل أمر بمعنى : طر من الطيران ، أى اثت الرسول بسرعة .

(٢) لعالك كلمة تقال للعائر دعاء له بالإقالة . أنشد أبو عبيد :

فلا لعأ لبنى فلان إذا عثروا .

(٣) قال الزرقانى ويروى : المحمود فى غير رواية ابن إسحاق ، أراد بالمحمود محمداً ﷺ وكذلك المأمون والأمين كانت قريش تسمى بها النبى ﷺ قبل النبوة . النهل : الشرب الأول . والعلل الشرب الثانى .

• شعرٌ بجير لكعب :

مَنْ مَبْلُغٌ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي التِّي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّاتِ وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النِّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمَفْلَتٍ مَنْ النَّاسِ إِلَّا طَاهِرَ الْقَلْبِ مُسْلِمُ
فَدَيْنٌ زَهِيرٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ دِينُهُ وَدَيْنٌ أَبِي سُلْمَى عَلَى مُحَرَّمُ

قال ابن إسحاق : وإنما يقول كعب « المأمون » ، لقول قريش الذي كانت تقول له رسول الله ﷺ .

كعب بن زهير وقصيدته بانت سعاد : قال ابن إسحاق : « فلما بلغ كعب الكتاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه ، فقالوا : هو مقتول . فلما لم يجد من شيء بدأ ، قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ ، وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ، ثم خرج حتى قدم المدينة » فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة ، من جهينة ، كما ذكر لي ، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله ﷺ ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ ، فقال : هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه فذكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ ، حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئت بك به ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، قال أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة : أنه وثب عليه رجل من الأنصار ، فقال يا رسول الله ، دعني وعدو الله أضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : دعه عنك فإنه قد جاء تائباً ، نارعاً عما كان عليه . قال فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار ، لما صنع به صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، فقال في قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ :
بَانتْ سَعَادٌ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مُتِيمٌ لَإِثْرَاهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ (١)

(١) بانت : فارقت فراقاً بعيداً . متيم : ذليل مستعبد . متبول : أسقمه الحب وأضناه . لم يفد : لم يخلص من الأسر . مكبول : لا يجد فكاً من القيد .

— ٢٦٣ — ابن إسحاق

- وَمَا سَعَادُ غَدَاةِ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا
هَيْفَاءَ مُقْبِلَةً عَجْزَاءَ مُدْبِرَةً
تَجَلَوُ عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ
شَجَتْ بِذِي شَيْمٍ مِنْ مَاءٍ مُحْنِيَةٍ
تَنْفِي الرِّيحَ الْقَذَى عَنْهُ وَأَفْرَطُهُ
فَيَالَهَا خَلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ
لَكُنْهَا خَلَّةً قَدْ سَيْطَ مَنْ دَمِهَا
فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا
وَمَا تَمْسُكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي رَعِمَتْ
- إِلَّا أَغْنَى غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ (١)
لَا يُشْتَكِي قَصْرَ مَنْهَا وَلَا طُولُ (٢)
كَأَنَّهُ مَنَهْلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ (٣)
صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ (٤)
مِنْ صَوْبٍ غَادِيَةٍ بِيضٍ يَعَالِيلُ (٥)
بِوَعْدِهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النِّصْحَ مَقْبُولُ (٦)
فَجَعِ وَكَلْعٍ وَإِخْلَافٍ وَتَبْدِيلُ (٧)
كَمَا تَكُونُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ (٨)
إِلَّا كَمَا يَمْسُكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ (٩)

- (١) غداة البين : صبيحة الفراق : أغن : أى طمى أغن فى صوته حسن ، غضيض الطرف : فاتره . مكحول : أسود الجفون .
(٢) هيفاء : قهامة البطن والخصر . العجزاء : ضخمة العجز ، لا يشتكى : لا يعاب .
(٣) تجلو : تصقل وتظهر وتكشف ، العوارض : الأسنان التى تظهر عند الضحك .
الظلم : ماء الأسنان وبريقها ورقتها وهو أيضاً الثلج شبهت به الأسنان ، المنهل : المسقى وهو الشرب الأول ، الراح : الخمر ، معلول : اسم مفعول من عله ، والعِلل : الشرب الثانى .
(٤) شجت : مزجت ، ذى شيم : ماء شديد البرد ، محنية : منعطف الوادى ، أبطح : مسيل واسع فيه حصى دقيق . أضحى : أخذ فى وقت الضحى ، مشمول : ضربته ربيع الشمال حتى برد .
(٥) تنفى : تبعد ، القذى : كل غريب يقع فى الماء من تبن ونحوه ، أفرطه : سبق إليه ، صوب : مطر سحابة ، غادية : مبكرة .
(٦) الخلة : الصديقة الخلية .
(٧) سيط : خلط ، فجع : إصابة ، ولع : كذب ، إخلاف : خلف الوعد ، والمعنى : هذه الصفات خلطت بدمها .
(٨) الغول : ساحرة الجن تظهر فى الفلاة باللون شتى ، تضلل من يتبعها .
(٩) ما تمسك : أى لا تتمسك .

- فَلَا يَغُرُّكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ إِنَّ الْأَمَانِي وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ (١)
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عِرْقُوبَ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ (٢)
أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتَهَا وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ (٣)
أَمْسَتْ سَعَادَ بَارِضٍ لَا يُلْغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ الْجَبِيَّاتُ الْمَرَايِيلُ (٤)
وَكِنْ يُلْغُهَا إِلَّا عَذَافِرُهُ لَهَا عَلَى الْأَيْنِ إِرْقَالٌ وَتَبْغِيلُ (٥)
مِنْ كُلِّ نَضَاخَةِ الذَّفَرَى إِذَا عَرَقَتْ عَرْضَتْهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولُ (٦)
تَرْمِي الْغُيُوبَ بَعَيْنِي مَفْرَدٌ لَهَقَ إِذَا تَوَقَّدَتْ الْحُزَانُ وَالْمِيلُ (٧)
ضَخَمٌ مُقْلِدُهَا فَعَمَ مَقِيدُهَا فِي خَلْقِهَا عَنْ بَنَاتِ الْفَحْلِ تَفْضِيلُ (٨)

- (١) فلا يغررك : لا يخدعك ، ما منت : ما متت به من الوصل ، الأمانى :
الآمال ، تضليل : سبب فى ضلال الإنسان .
(٢) عرقوب : رجل اشتهر بخلف الوعد فضرب به المثل ، الأباطيل : جمع باطل ،
وهو جمع على غير القياس .
(٣) تدنو : تظهر ، إخال : بكسر الهمزة لغة تميم بمعنى أظن . تنويل : الوصل
والعطاء .
(٤) العتاق : جمع عتيق : الكريم . النجيات : جمع نجية : الخفيفة السريعة المراسيل :
جمع مرسال ، السريعة أيضاً .
(٥) العذافرة : الناقة القوية العظيمة . الأين : التعب . إرقال وتبغيل : ضربان من
العدو السريع .
(٦) نضاخة : كثيرة رشح العرق . الذفرى : نقرة توجد خلف أذن الناقة . عرضتها :
هَمَّا . طامس : دارس . الأعلام : العلامات التى تكون فى الطريق ليهتدى بها .
يصف ناقته بالسرعة والنشاط حتى تعرق وهى متعودة على الأسفار تعرف الطرق بلا
علامات .
(٧) الغيوب : آثار الطريق التى غابت معالمها عن العيون . مفرد : ثور وحشى تفرد فى
الصحراء . لهق : أبيض . الحزان : الأمكنة الغليظة الصلبة فيها حصباء كثيرة . الميل :
الكثبان الضخمة من الرمال .
(٨) مقلد : موضع القلادة من العنق . فعم : ممتلىء مقيد : موضع القييد ، أى
قوائمها . وبنات الفحل : الإناث من الإبل المنسوبة إلى أبيها .

— ٢٦٥ — ابن إسحاق

- (١) غلباءً وِجْناء علكوم مُذكرة في دَفْها سعة قدامها ميلُ
(٢) وجلدها من أطوم ما يؤيسه طَلح بضاحية المتنين مهزولُ
(٣) حَرْفٌ ، أخوها أبوها من مهجنة وعَمها خالها قوداء شَمليلُ
(٤) يَمْشى القِرَادُ عليها ثم يزلقه منها لبان وأقربابُ رَهاليلُ
(٥) عيرانة قذفتُ بالنعوض عن عرض مرفقها عن بنات الزور مفتولُ
(٦) كأنما فأتَ عينَها ومذبحها من خَطَمها ومن اللحين برطيلُ
(٧) تمر مثل عسيب النخل ذا خصل في غارز لم تخونه الأحاليلُ
(٨) قرناء ففى حرثها للبصير بها عتق مُبين وفي الخدين تسهيلُ
(٩) تخدى على يسرات وهي لاحقة ذوابل مسهن الأرض تحليلُ

(١) غلباء : غليظة العنق . وِجْناء : عظيمة الوجنتين : علكوم : شديدة . مذكرة : تشبه الذكر فى عظم الخلقة ، الدف : الجنب . قدامها ميل : كناية إما عن سعة الخطو أو طول العنق .

(٢) الأطوم : السلحفاة البحرية أو الزرافة غليظة الجلد . يؤيسه : يؤثر فيه . طَلح : حشرة صغيرة تلزق بالجلد وهو ما يعرف بالقراد . الضاحية : الناحية الظاهرة للشمس . المتنين : ما اكتنف صلبها عن يمين وشمال . ومهزول : صفة لطلح . أى قراد مهزول . والمعنى : أن جلد هذه الناقة غاية فى الملاسة فلا يؤثر فيه القراد ولذلك هو مهزول .
(٣) حرف : أى هى حرف ، أبوها أخوها ، وعَمها خالها : مداخلة النسب كريمته لم يدخل نسبها غريب .

(٤) يزلقه : يسقطه ، لبان : صدر ، أقرباب : خواصر . رَهاليل : جمع رهلول ، والمعنى : أن هذه الناقة لنعومتها لا يثبت القراد على جسدها .

(٥) عيرانة : أى ناقة تشبه الوحش فى قوته وسرعته ونشاطه .
(٦) فأت : تقدم ، مذبحها : مكان الذبح من الرقبة ، الخطم : الأنف وما حوله .
(٧) عسيب النخل : جريده ، ذا خصل : ذيل له لفائف من الشعر .
(٨) القرناء : محدودبة الأنف ، الحرتان : الأذنان ، عتق : كرم .
(٩) تخدى : تسرع ، يسرات : أى قوائم يسرات : واليسرات الخفاف ، لاحقة : سابقة ، الدوابل : الرماح الصلبة ، تحليل : قليل والمعنى : أن هذه الناقة سريعة لا تمس الأرض إلا مساً سريعاً لشدة عدوها .

— ٢٠٦٦ — ابن إسحاق —

- سُمِرَ العجايات يَتَرَكْنَ الحصى زِيماً . لم يَقْهِنَ رءوس الأكم تنعيلٌ (١)
 كَانَ أَوْبٌ ذِرَاعِيهَا وَقَدْ عَرَقَتْ . وقد تَلَفَعَ بالقُور العساقيلُ (٢)
 يَوْمًا يَظَلُّ بِهِ الحَرْبَاءُ مَصْطَخِداً . كأن ضاحيةً بالشَّمْسِ مَمْلُوءُ (٣)
 وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيهِمْ - وقد جعلتُ . ورقَ الجنادِبِ يركُضُنَ الحَصَا قِيلُوا (٤)
 شَدَّ النَّهَارُ ذِرَاعًا عِطْلٌ نَصَفَ . قَامَتْ فَجَاوِبُهَا نَكَدٌ مَثَاكِيلُ (٥)
 نَوَاحَةٌ رَخْوَةٌ الضَّبْعِينَ لَيْسَ لَهَا . لما نَعَى بِكْرَهَا النَّاعُونَ مَعْقُولُ (٦)
 تَفَرَّى اللَّبَّانُ بِكَفِّهَا وَمَدْرَعُهَا . مشفقٌ عَن تَرَاقِيهِهَا رَعَابِيلُ (٧)
 تَسْعَى الْغَوَاةُ جَنَابِيهَا وَقَوْلُهُمْ . إنك يابن أبى سُلْمَى لَمَقْتُولُ (٨)

- (١) العجايات : الأعصاب المتصلة بالحافر . ربما : متفرقة . الأكم : الأرض المرتفعة .
 التنعيل : هو شد النعل على ظفر الدابة ليقبض الحجارة .
 (٢) الأوب : سرعة قلب ورجوع ذراعيها . تلفع : التحف . القور : جمع قارة :
 الجبل الصغير . العساقيل : السراب .
 (٣) الحرباء : نوع من الدواب الصغيرة . مصطخداً . محترقا بحرارة الشمس .
 ضاحية : ما برز للشمس منه ، مملوء : محروق .
 (٤) الحادى : سائق الإبل . ورق : جمع أوراق أو ورقاء . وهو الأخضر الذى يضرب
 إلى السواد . الجنادب : جمع جندب : نوع من الجراد . يركضن : يدفعن : قيلولوا : خذوا
 راحتكم وقت القيلولة .
 (٥) شد النهار : وسطه . عيطل : طويلة : نصف : متوسطة السن وهو غاية قوتها .
 نكد : من لا يعيش لهن ولد . مَثَاكِيل : كثيرة فقد الأولاد .
 والمعنى : يشبه سرعة حركة يدي هذه الناقة بيدي امرأة قوية تلطم خديها فيجاوبها نسوة
 ثكالى فيشتد لطمها .
 (٦) نواحة : كثيرة النوح . صيغة مبالغة من نائحة . رخوة : مسترخية . الضبعين .
 العضدين . بكر : الولد الأول . الناعون . المخبرون بالموت : معقول : عقل .
 والمعنى : شبه هذه الناقة بتلك المرأة فى تلك الأحوال فالناقة فى هذه الحالة ليس لها
 عقل تدرك به التعب والإعياء .
 (٧) تفرى : تقطع . اللبان : الصدر . المدرع : القميص . التراقى : جمع ترقوة :
 عظام الصدر . رعابيل : قطع ، أى أن هذه المرأة لديها عقلها تقطع قميصها بأناملها .
 (٨) الغواة : المفسدون ، جنابيتها : حواليتها ، مقتول : متوعد بالقتل .

سابق إسحاق ٢٦٧

- وقال كل صديق كنت آمله
فقلت خلوا سبيلي لا أبأ لكم
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
نبتت أن رسول الله أوعدني
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به
لظلّ يرعد إلا أن يكون له
حتى وضعت يميني ما أنارعه
فلهو أخوف عندي إذ أكلمه
من ضيغم بضراء الأرض مخدره
- (١) لا الهينك إني عنك مشعول
(٢) فكل ما قدر الرحمن مفعول
(٣) يوماً على آلة حذباء محمول
(٤) والعفو عند رسول الله مأمول
(٥) قرآن فيها مواعيط وتفصيل
(٦) أذنب ولو كثرت في الأقاويل
(٧) يرى ويسمع ما قد أسمع الفيل
(٨) من الرسول بإذن الله تنويل
(٩) في كف ذي نقمات قيله القيل
(١٠) وقيل إنك منسوب ومسئول
(١١) في بطن عثر غيل دونه غيل

- (١) آمله : أترجاه وأتمنى إعانته
(٢) خلوا سبيلي : اتركوني أقف بين يدي الرسول ﷺ فإنه سيعفو عني .
(٣) آلة حذباء : نعش .
(٤) نبتت : أخبرت ، مأمول : مرجو .
(٥) هداك : زادك هدى ، فإنه لا يدعو له بالهدى لأنه الهادي المهدي ، نافلة : زيادة ؛
لأن القرآن هدية زائدة عن النبوة ومنحة الرسالة .
(٦) لم أذنب : لم أخطيء في حقك .
(٧) مقام : أي مجلس الرسول ﷺ ، يقوم : يحضر .
(٨) يرعد : يرتعش بسبب الخوف ، تنويل : عطاء .
(٩) لا أنارعه : أي أطيعه . نقمات : السطوة . قيله القيل : قوله
النافذ .
(١٠) أخوف : أي هو صلى الله عليه وسلم أشد إخافة وإرهاباً . منسوب ومسئول :
أي منسوب إلى أشياء قتلها ومسئول عنها .
(١١) الضيغم : الأسد . ضراء الأرض : الأرض التي بها شجر . مخدره : غابة
الأسد . عثر : مكان تكثر فيه السباع . والغيل : الأجمة ، وهي الشجر الكثير الملتف .

- يَغْدُو فيلحم ضِرْغَامَيْنَ عَيْشَهُمَا (١) لحم من الناس مَعْفُور خِرَادِيلُ (١)
 إِذَا يَسَاوِرُ قَرْنًا لَا يَحُلُّ لَهُ (٢) أن يترك القرنَ إِلَّا وهو مَفْلُولُ (٢)
 مِنْهُ تَظَلُّ سِبَاعُ الْجُو نَافِرَةٌ (٣) وَلَا تَمُشِّي بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلُ (٣)
 وَلَا يَزَالُ بَوَادِيهِ أَخُو ثِقَةٍ (٤) مَضْرَجُ الْبَزِّ وَالْدُرْسَانُ مَأْكُولُ (٤)
 إِنَّ الرِّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ (٥) مُهَنْدٌ مِنْ سَيْوَفِ اللَّهِ مَسْلُولُ (٥)
 فِي عَصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ (٦) بِيْطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا (٦)
 زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كَشَفُ (٧) عِنْدَ الْلِقَاءِ وَلَا مَسِيلُ مَعَاذِيلُ (٧)
 شَمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالُ لَبُوسُهُمْ (٨) مِنْ نُسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ (٨)
 بِيضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شَكَتْ لَهَا حَلَقُ (٩) كَأَنَّهَا حَلَقَ الْقَفْعَاءَ مَجْدُولُ (٩)
 لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ (١٠) قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَارِيْعًا إِذَا نِيلُوا (١٠)

(١) يغدو : يخرج أول النهار للصيد . يلحم : يطعم لحما . ضرغامين : مثنى
 ضرغام : شبل الأسد . معفور : ملقى في التراب . خراديل : مقطع قطعاً صغيرة .
 (٢) يساور : يواكب ويصارح . القرن : المائل في الشجاعة . مفلول : المكسور
 المهزوم .

(٣) الجو : ما بين السماء والأرض . نافرة : بعيدة . الأراجيل : جماعات من
 الرجال . جمع أرجال ، التي هي جماعة الرجال .

(٤) أخو ثقة : الواصل بنفسه . مضرج : مخضب بالدماء . البز : السلاح .
 الدرسان : مفردة دريس : الخلق من الثياب .

(٥) يستضاء به : يهتدى به إلى نور الحق . مهند : سيف طبع في الهند . مسلول :
 مخرج من غمده .

(٦) العصبة : الجماعة ما بين العشرة إلى الأربعين زولوا : فعل أمر من زال التامة أى
 التي لها فاعل . أى تحولوا وانتقلوا .

(٧) الألكاس : المهانون ، ولا كشف : أى لا ينكشفون في الحرب بمعنى : لا
 يهزمون .

(٨) شم : جمع أشم ، وهي علامة العزة والسيادة وهو علو قصبة الأنف مع استواء
 أعلاه . اللبوس : ما يلبس من عده الحرب ، الهيجا : الحرب ، سراويل : دروع .

(٩) بيض : مجلوة ، مجدول : محكم صنعه .

(١٠) مفاريح : كثيرو الفرع ، نيلوا : أصيبوا .

— ٢٦٩ — ابن إسحاق

- يَمْشُونَ مَشَى الْجَمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبَ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ (١)
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِى نُحُورِهِمْ وَمَالَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ (٢)
• كعب يسترضى الأنصار بمدحهم :

قال ابن إسحاق : وقال عاصم بن عمر بن قتادة : فلما قال كعب : إذا عرد
السود التنابيل ، وإنما يريدنا معشر الأنصار ، لما كان صاحبنا صنع به ما صنع وخص
المهاجرين من قريش من أصحاب رسول الله ﷺ بمدحته غضبت عليه الأنصار ،
فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار ، ويذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ ، وموضعهم
من اليمن :

- | | |
|------------------------------|---------------------------------|
| من سره كرم الحياة فلا يزل | فى مقنّب من صالحى الأنصار (٣) |
| ورثوا المكارم كابرًا عن كابر | إن الحيار هم بنو الأخيار |
| المكرهين السهمرى بأذرع | كسوالف الهندى غير قصار (٤) |
| والناظرين بأعين محمّرة | كالجمر غير كليلّة الأبصار (٥) |
| والبائعين نفوسهم لنبيهم | للموت يوم تعانق وكبرار (٦) |
| والدائدين الناس عن أديانهم | بالمشرفى وبالقنا الخطار (٧) |
| يتطهرون يرونه نسكا لهم | بدماء من علقوا من الكفار (٨) |
| دربوا كما دربت ببطن خفية | غلب الرقاب من الأسود صوّاري (٩) |

- (١) الزهر : البيض ، يعصمهم : يمنعهم ، التنابيل : القصار .
(٢) حياض الموت : موارد الهلاك ، ويريد بها أرض المعركة ، تهليل : تأخر ،
قال ابن هشام : يقال إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده : « بانت سعاد » : لو
ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل ، فقال كعب هذه الأبيات .
(٣) المقنّب : جماعة الخيل . والمراد به هنا الأنصار على ظهور خيلهم .
(٤) السهمرى : الرمح . سوالف : حواشى . الهندى : السيف المنسوب إلى الهند .
(٥) بأعين محمّرة : يريد أن الشجاع إذا غضب احمرت عيناه .
(٦) تعانق : يريد به التحام الشجعان فى ميدان القتال .
(٧) المشرفى : السيف . القنا : الرماح . الخطار : المهتر .
(٨) يرونه : يعتقدونه ، نسكا : عبادة .
(٩) دربوا : تعودوا ، خفية : مكان تكثر فيه الأسود ، غلب : غلاظ .

- وإذا حَلَّتْ لِيَمْنُ عَوَكِ إِلَيْهِمْ أَصْبَحْتَ عِنْدَ مَعَاقِلِ الْأَعْفَارِ (١)
 ضَرَبُوا عَلِيًّا يَوْمَ بَدْرٍ ضَرْبَةً دَأَنْتَ لَوْقَعَتِهَا جَمِيعَ نَزَارِ (٢)
 لَوْ يَعْلَمُ الْأَقْوَامُ عِلْمِي كُلَّهُ فِيهِمْ لَصَدَقْنِي الَّذِينَ أَمَارِي (٣)
 قَوْمٌ إِذَا خَوَتْ النُّجُومُ فَإِنَّهُمْ لِلطَّارِقِينَ السَّابِزِينَ مَقَارِي (٤)
 فِي الْغُرِّ مِنْ غَسَّانٍ مِنْ جَرُثُومَةٍ أَعَيْتَ مَحَافِرَهَا عَلَى الْمِنْقَارِ (٥)

* * *

غَزْوَةُ تَبُوكَ (٦) فِي سَنَةِ تِسْعٍ

• أَمْرُ الرَّسُولِ ﷺ بِالْإِسْتِعْدَادِ لَتَبُوكَ :

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم . وقد ذكر لنا الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة ، وغيرهم من علمائنا ، كل حدث في غزوة تبوك ما بلغه عنها ، وبعض القوم يحدث ما لا يحدث بعض . أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك في زمن من عُسرة الناس ، وشدة من الحر ، وجذب من البلاء وحين طابت الثمار . والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه ، وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كُنِيَ عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه

(١) الأعفار : الوعر الصغيرة يضرب بها المثل لامتناعها في قمم الجبال .

(٢) ضربوا عليًّا : يريد به علي بن مسعود بن مارن الغساني .

(٣) أماري : أجادل .

(٤) خوت : سقط ولم تمطر . مقاري : المقاري : الجفان التي يصنع فيها الطعام .

(٥) وتروى : النقار .

(٦) تبوك : بفتح التاء موضع بين وادي القرى والشام ، وقيل بركة لأبناء سعد من بني

عذرة وقيل تبوك بين الحجر وأول الشام ، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي

ﷺ . ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب عليه السلام كانوا فيها ولم يكن

شعيب منهم وإنما كان من مدين ، قال يحيى بن جابر توجه النبي ﷺ في سنة تسع للهجرة

إلى غزوة تبوك من أرض الشام وهي آخر غزواته ﷺ .

— ٢٧١ — ابن إسحاق

الذى يصمد له ^(١) ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يصمد له ، ليتأهب الناس لذلك أهبة ، فأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم ^(٢) .

• تخلف الجند بن قيس :

قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو فى جهازه ذلك للجند بن قيس أحد بنى سلمة يا جد : هل لك العام فى جلاذ بنى الأصفر ^(٣) ؟ فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرفت قومى أنه ما من رجل بأشدَّ عَجَبًا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى بالأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك . ففى الجند بن قيس نزلت هذه الآية : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ^(٤) .

أى إن كان إنما خشى الفتنة من نساء بنى الأصفر ، وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلفه عن رسول الله ﷺ ، والرغبة بنفسه عن نفسه يقول تعالى : « وإن جهنم لمن ورائه » .

شأن المنافقين : وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تنفروا فى الحر ، زهادة فى الجهاد وشكا فى الحق ، وإرجافا برسول الله ﷺ ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ ^(٥) .

حض الأغنياء على النفقة : قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ جد فى سفره ، وأمر الناس بالجهاز والانكماش ، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان

(١) يصمد له : يقصده .

(٢) وهذه استراتيجية عسكرية سبق بها الرسول ﷺ العالم منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام ، ليعلم القادة الدبلوماسية فى قيادة الجيوش .

(٣) بنو الأصفر : يريد الروم .

(٤) سورة التوبة : الآية ٤٩ .

(٥) سورة التوبة : ٨١ - ٨٢ .

— ٢٧٢ — ابن إسحاق —

فى سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ^(١) ، وأنفق عثمان بن عفان فى ذلك نفقة عظيمة ، لم ينفق أحد مثلها ^(٢) .

البكَّاءون والمعدِّرون والمتخلفون : قال ابن إسحاق : ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ ، وهم البكَّاءون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف : سالم بن عمير ، وعُلبه بن زيد ، أخو بنى حنارثة ، وأبو ليلي عبد الرحمن بن كعب ، أخو بنى مازن بن النجار ، وعمرو بن حمام بن الجموح ، أخو بنى سلمة ، وعبد الله بن المغفل المزنى - وبعض الناس يقول : بل هو عبد الله ابن عمرو المزنى - وهرمى بن عبد الله ، أخو بنى واقف ، وعرباض بن سارية الفزاري . فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة ، فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .

قال ابن إسحاق : فبلغنى أن ابن يامين بن عمير بن كعب النضري لقي أبا ليلي عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل وهما يكيان ، فقال لهما : ما يكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا . فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس لنا ما نتقوى به على الخروج معه فأعطاهما ناضحاً ^(٣) له ، فارتحلاه ، وزودهما شيئاً من تمر فخرجا مع رسول الله ﷺ .

• شأن المعدِّرين :

قال ابن إسحاق : وجاءه المعدِّرون من الأعراب ، فاعتذروا إليه ، فلم يعذرهم الله تعالى . وقد ذكر لى أنهم نفر من بنى غفار .

ثم استتب ^(٤) برسول الله ﷺ سفره ، وأجمع السير ، وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ ، حتى تخلفوا عنه ، عن غير شك

(١) احتسبوا : أى احتسبوا الأجر عند الله ابتغاء مرضاته .

(٢) قال ابن هشام : حدثنى من أثق به أن عثمان بن عفان أنفق فى جيش البصرة فى غزوة تبوك ألف دينار - وكان فى ذلك الوقت مبلغاً كبيراً - فقال رسول الله ﷺ « اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » يا لها من منزلة عظيمة نالها سيدنا عثمان بفضل إنفاقه فى سبيل الله !! .

(٣) الناضح : الحمل الذى يُسقى عليه الماء .

(٤) استتب : انتظم وتتابع .

— ابن إسحاق — ٢٧٣ —

ولا إرتياب منهم : كعب بن مالك بن أبي كعب ، أخو بني سلمة ، ومروارة بن الربيع ، أخو بني عمرو بن عوف ، وهلال بن أمية ، أخو بني واقف ، وأبو خيثمة ، أخو بني سالم بن عوف وكانوا نفر صدق ، لا يتهمون في إسلامهم . فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الدواع (١) .

قال ابن إسحاق : وضرب عبد الله بن أبي معه على حدة عسكرة أسفل منه ، نحو ذباب (٢) وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين . فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي ، فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب (٣) .

المنافقون يرجفون بعلي : وخلف رسول الله ﷺ على بن طالب ، رضوان الله عليه ، إلى أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلفه إلا استثقلا له ، وتخففا منه . فلما قال ذلك المنافقون ، أخذ على بن أبي طالب ، رضوان الله عليه سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف (٤) ، فقال : يا نبي الله ، رعم المنافقون أنك إنما خلقتني أنك استثقلتني وتخففت مني ، فقال : كذبوا ، ولكني خلقتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي ، فرجع على إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ على سفره .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة ، عن إبراهيم ابن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه سعد : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لعلي هذه المقالة .

قال ابن إسحاق : ثم رجع على إلى المدينة ، ومضى رسول الله ﷺ على سفره .

أبو خيثمة وعمير بن وهب يلحقان بالرسول : ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن

-
- (١) قال ابن هشام : واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري .
 وذكر عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن أبيه : أن رسول الله ﷺ استعمل على المدينة ، مخرجه إلى تبوك ، سباع بن عرفة .
 (٢) ذباب : جبل بالمدينة .
 (٣) أي أهل الشك .
 (٤) الجرف : مكان بينه وبين المدينة ثلاثة أميال .

٢٧٤ ————— ابن إسحاق —————

سار رسول الله ﷺ أياما إلى أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشين (١) لهما في حائطه (٢) قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء وهيات له فيه طعاما ، فلما دخل ، قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله ﷺ في الضح (٣) والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعام مهيا ، وامرأة حسناء ، في ماله مقيم ، ما هذا بالنصف ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيئا لى زادا ، ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحلها ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل بتبوك . وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق ، يطلب رسول الله ﷺ ، فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك . قال أبو خيثمة لعمير ابن وهب : إن لى ذنبا ، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتى رسول الله ﷺ ففعل حتى إذ دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق مُقبل ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة : فقالوا يا رسول الله هو والله أبو خيثمة (٤) . فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير (٥) .

• ما قاله النبي وهو بالحجر (٦) :

قال ابن إسحاق : وقد كان رسول الله ﷺ حين مر بالحجر نزلها واستقى الناس من بئرها . فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : لا تشربوا من مائها شيئا ، ولا تتوضؤا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئا ، ولا يخرج من أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له (٧) . ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ ، إلا أن رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحاجته ، وخرج

(١) العريش : ما يستظل به . (٢) الحائط : البستان (٣) الضح : الشمس .

(٤) هذا من الوحى على لسانه فسيحان من أجراه على لسانه .

(٥) اسمه مالك بن قيس ، وقال مؤلفه شعرا منه :

لما رأيتُ الناس في الدين نافقوا
بليت التلى كانت أعفُ وأكرما

وبايعت باليمنى يدي لمحمد فلم أكتسب إنما ولم أغش محرمًا

(٦) الحجر : اسم ديار بني النضير بين المدينة والشام .

(٧) وهذا لحكمة يعلمها الله ورسوله حتى لا يحدث لأحد ضرر .

— ٢٧٥ — ابن إسحاق

الآخر فى طلب بعير له ، فأما الذى ذهب لحاجته فإنه خُلق على مذهبه ، وأما الذى ذهب فى طلب بعيره فاحتملته الريح ، حتى طرحته بجبل طيء . فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال : ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه ، ثم دعا رسول الله ﷺ للذى أصيب على مذهبه فشفى ، وأما الآخر الذى وقع بجبل طيء ، فإن طيئاً أهدته لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة .

والحديث عن الرجلين عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عباس بن سهل بن سعد الساعدي ، وقد حدثني عبد الله بن أبى بكر أن قد سمي له العباس الرجلين ، ولكنه استودعه إياهما (١) ، فأبى عبد الله أن يسميهما لى (٢) .

قال ابن إسحاق : فلما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله ﷺ ، فأرسل الله سبحانه سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن رجال من بنى عبد الأشهل ، قال : قلت لمحمود : هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم ؟ قال : نعم والله ، إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفى عشيرته ، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك . ثم قال محمود : لقد أخبرني رجال من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه ، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار ، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان ، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا ، فأرسل الله السحابة ، فأمطرت حتى ارتوى الناس قالوا : أقبلنا عليه نقول : ويحك ، هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابة مارة (٣) .

تَقُولُ ابن اللصيت : قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا

(١) أى استكتمه السر .

(٢) قال ابن هشام : بلغني عن الزهري أنه لما مر رسول الله ﷺ بالحجر سجد ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته ، ثم قال : لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون ، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

(٣) فمن قال مطرنا بفضل الله فهو مؤمن بالله كافر بالكوكب أما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب .

— ٢٧٦ — ابن إسحاق —

كان ببعض الطريق ضلت ناقته ، فخرج أصحابه في طلبها ، وعند رسول الله ﷺ ، رجل من أصحابه ، يقال له عمارة بن حزم ، وكان عقبياً بدرياً ، وهو عم بني عمرو ابن حزم ، وكان في رحله زيد بن اللصيت القينقاعى ، وكان منافقاً .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن رجال من بني عبد الأشهل ، قالوا : فقال زيد بن اللصيت ، وهو في رحل عمارة وعمارة عند رسول الله ﷺ : أليس محمد يزعم أنه نبي ، ويخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده : إن رجلاً قال : هذا محمد يخبركم أنه نبي ، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ، وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله وقد دلنى الله عليها ، وهى في هذا الوادى ، فى شعب كذا وكذا ، قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها (١) ، فذهبوا ، فجاءوا بها . فرجع عمارة بن حزم إلى رحله ، فقال : والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ أنفاً ، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا ، كالدئ قال زيد بن اللصيت ، فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ : زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى . - فأقبل عمارة على زيد ينجأ (٢) فى عنقه ويقول إلى عباد الله ، إن فى رحلى لداهية وما أشعر ! اخرج أى عدو الله من رحلى ، فلا تصحبنى .

● قصة أبى ذر :

قال ابن إسحاق : فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك ، وقال بعض الناس لم يزل متهماً بشر حتى هلك . ثم مضى رسول الله ﷺ سائراً ، فجعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان ، فيقول دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، حتى قيل : يا رسول الله ، قد تخلف أبو ذر (٣) وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه فإن يك فيه

(١) أخبر الله نبيه بكان الناقة ليرد كيد المنافق فى نحره ، وليؤكد الحقيقة أن الرسول ﷺ مؤيد من الله وأن الخبر يأتيه حقاً من السماء ، ولذلك وجدوا الناقة كما وصفها لهم الرسول ﷺ ، وهذه من معجزاته .

(٢) ينجأ : يطعن .

(٣) أبو ذر : اسمه جندب بن جنادة . وقيل : زيد بن عسرة . وقيل : جندب بن عبد الله . وقيل : جندب بن السكن ، والأول أصح والله أعلم .

— ٢٧٧ — ابن إسحاق

خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، وتلوم ^(١) أبو ذر على بغيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازلهم فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر ^(٢) فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويُبْعَث وحده .

قال ابن إسحاق : فحدثني بُريدة بن سفيان الأسلمي ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : لما نفى عثمان أبا ذر إلى الرَبْدَةِ وأصابه بها قدره ^(٣) ، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلّامه ، فأوصاهما أن أغسلاني وكفّناني ، ثم ضعاني على قارعة الطريق ، فأول ركب يمر بكم فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ ، فأعينونا على دفنه ، فلما مات فعلا ذلك به . ثم وضعاه على قارعة الطريق ، وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عمار ، فلم يرعهم إلا بالجنّارة على ظهر الطريق ، قد كادت الإبل تطؤها . وقام إليهم الغلام . فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه . قال : فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول : صدق رسول الله ﷺ ، تمشى وحدك ، وتموت وحدك وتُبْعَث وحدك . ثم نزل هو وأصحابه فواروه ^(٤) ، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه ، وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك .

• تخويف المنافقين المسلمين وما نزل فيهم :

قال ابن إسحاق : وقد كان رهط من المنافقين ، منهم وديعة بن ثابت ، أنحو بن عمرو بن عوف ، ومنهم رجل من أشجع ، حليف لبني سلمة ، يقال له : مخشّن بن حمير يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : اتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال ، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ، فقال مخشّن بن حمير : والله

(١) تلوم : تمهل .

(٢) كن أبا ذر : لفظ الأمر ، ومعناه الدعاء : كما تقول أسلم سلمك الله .

(٣) أى وافته المنية وأتاه الموت .

(٤) أى دفنوه .

— ٢٧٨ — ابن إسحاق —

لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وإننا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه .

وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر : أدرك القوم ، فإنهم قد احترقوا ، فسلمهم عما قالوا : فإن أنكروا فقل : بلى قلت كذا وكذا ، فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم : فاتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت ، ورسول الله ﷺ واقف على ناقته ، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها (١) : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ . وقال مخشن بن حمير : يا رسول الله ، قعد بى اسمى واسم أبى ، وكأن الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشن بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ، فلم يوجد له أثر (٢) .

الصلح مع صاحب أيلة : ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك ، أتاه ليحنة ابن ربيعة ، صاحب أيلة ، فصالح رسول الله ﷺ ، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح ، فأعطوه الجزية ، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً ، فهو عندهم . فكتب ليحنة بن ربيعة :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمانة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن ربيعة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر : لهم ذمة الله ، وذمة محمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يريدونه ، من بر أو بحر .

• خالد وأكيدر دومة :

ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة ، وهو أكيدر ابن عبد الملك ، رجل من كندة كان ملكاً عليها ، وكان نصرانياً ، فقال رسول الله ﷺ لخالد : إنك ستجده يصيد البقر . فخرج خالد ، حتى إذا كان من حصنه

(١) الحقب : حزام يشد به على حقو الجمل .

(٢) أخلص فى الدعاء فاستجاب الله منه .

— ٢٧٩ — ابن إسحاق

بمنظر العين ، وفي ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ، ومعه امرأته ، فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله ! قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لا أحد . فنزل فأمر بفرسه ، فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخ له يقال له حسان . فركب ، وخرجوا معه بمطاردهم . فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ ، فأخذته ، وقتلوا أخاه ، وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب ، فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة . عن أنس بن مالك : رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ . فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله ﷺ : أتعجبون من هذا ؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا (١) .

قال ابن إسحاق : ثم إن خالدًا قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ ، فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم تلى سبيله ، فرجع إلى قريته ، فقال رجل من طيء : يقال له بجير بن بجرة ، يذكر قول رسول الله ﷺ لخالد : إنك ستجده يصيد البقر ، وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته ، لتبديق قول رسول الله ﷺ :

تبارك سائق البقرات إني رأيتُ الله يهدي كل هادٍ
فمن يك حائدًا عن ذى تبوك فإننا قد أمرنا بالجهاد

فأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة ، لم يجاوزها ، ثم انصرف قافلًا إلى المدينة .

• وادى المشقق وماؤه والمعجزة :

وكان في الطريق ماء يخرج من وشل ، وما يروى الراكب والراكبين والثلاثة ، بواد يقال له وادى المشقق ، فقال رسول الله ﷺ : من سبقنا إلى ذلك الوادى فلا يستقين منه شيئًا حتى نأتيه ، قال : فسبقه إليه نفر من المنافقين ، فاستقوا ما فيه ،

(١) والمناديل مما يمتهن فما بالك بالملابس .

٢٨٠ — ابن إسحاق —

فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم ير فيه شيئا فقال: من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقليل له يا رسول الله . فلان وفلان ، فقال : أوكم أنهم أن يستقوا منه شيئا حتى آتية ثم لعنهم رسول الله ﷺ ، ودعا عليهم ثم نزل فوضع يده تحت الوشل ، فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب ، ثم نضح به ، ومسحه بيده ، ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعو به ، فانخرق من الماء - كما يقول من سمعه - ما إن له حسا كحس الصواعق ، فشرب الناس ، واستقوا حاجتهم منه . فقال رسول الله ﷺ : لئن بقيتم أو من بقى منكم لتسمعن بهذا الوادى ، وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه .

ذو البجادين ودفنه وتسميته : قال : وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ، أن عبد الله بن مسعود كان يحدث ، قال : قمت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله ﷺ ، فى غزوة تبوك ، قال : فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر ، قال : فاتبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المرنى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله ﷺ فى حفرة ، وأبو بكر وعمر يدنيانه إليه ، وهو يقول : أدنيا إلى أخاكما ، فدلياه إليه ، فلما هياه لشقه قال : اللهم إني أمسيت راضيا عنه ، فارض عنه . قال : يقول عبد الله بن مسعود : ياليتنى كنت صاحب الحفرة .

حديث أبى رهم فى تبوك : قال ابن إسحاق : وذكر ابن شهاب الزهري ، عن ابن أكيمة الليثي ، عن ابن أخى أبى رهم الغفاري ، أنه سمع أبا رهم كلثوم بن الحصين ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ الذين بايعوا تحت الشجرة ، يقول : غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك ، فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر قريبا من رسول الله ﷺ وألقى الله علينا النعاس فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتى من راحلة رسول الله ﷺ ، فيفزعنى دنوها منه ، مخافة أن أصيب رجله فى الغرر ، فطفقت أحور^(١) راحلتى عنه ، حتى غلبتنى عينى فى بعض الطريق ، ونحن فى بعض الليل ، فزاحمت راحلتى راحلة رسول الله ﷺ ورجله فى الغرر ، فما استيقظت إلا بقوله حس^(٢) ، فقلت : يا رسول الله ، استغفر لى . فقال : سر

(١) أحور : أبعد . (٢) حس : كلمة تقال عند وجود الألم .

— ٢٨١ — ابن إسحاق

فجعل رسول الله ﷺ يسألني عمن تخلف من بنى غفار ، فأخبره به فقال وهو يسألني : ما فعل النفر الحمر الطوال الثطاط (١) فحدثته بتخلفهم . قال : فما فعل النفر السود الجعاد القصار ؟ قال : قلت : والله ما أعرف هؤلاء منا . قال بلى ، الذين لهم نَعَمٌ بشبكة شдох (٢) فتذكرتهم في بنى غفار ، ولم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا ، فقلت : يا رسول الله ، أولئك رهط من أسلم ، حلفاء فينا ، فقال رسول الله ﷺ : ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرءاً نشيطاً في سبيل الله ؟ إن أعز أهلي على أن يتخلف عني المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم .

* * *

أمر مسجد الضرار عند القُفُول من غزوة تبوك . دعوة أهله الرسول للصلاة فيه :

قال ابن إسحاق : ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان بلد ، بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك . فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا . فتصلى لنا فيه ، فقال : إني على جناح سفر ، وحال شغل أو كما قال ﷺ : ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى لأتيناكم ، فصلينا لكم فيه .

• أمر الرسول ﷺ بهدمه :

فلما نزل بذي أوان ، أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، أخا بني سالم بن عوف ، ومَعْن بن عَدِي ، أو أخاه عاصم بن عدي ، أخا بني العجلان . فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلي . فدخل إلى أهله ، فأخذ سعفاً

(١) الثطاط : مفرد طط ، صغير نبات شعر اللحية .

(٢) شبكة شдох : موضع ببلاد غفار .

— ٢٨٢ — ابن إسحاق —

من النخل ، فاشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ ^(١) . إلى آخر القصة .

وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خذام بن خالد ، من بنى عبيد بن زيد . أحد بنى عمرو بن عوف ، ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، وثعلبة بن حاطب من بنى أمية بن زيد ، ومعتب بن قشير ، من بنى ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزهر ، من بنى ضبيعة بن زيد ، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف ، من بنى عمرو بن عوف ، وجارية بن عامر ، وابناه مجمع بن جارية . وزيد بن جارية ، ونبتل بن الحارث ، من بنى ضبيعة ، ويحزج ، من بنى ضبيعة ، وبجاد بن عثمان من بنى ضبيعة ، ووديع بن ثابت ، وهو من بنى أمية بن زيد رهط أبي لبابة بن عبد المنذر .

مساجد الرسول : وكانت مساجد رسول الله ﷺ فيما بين المدينة إلى تبوك . معلومة مسماة : مسجد بتبوك ، ومسجد بثنية مدران ، ومسجد بذات الزراب ، ومسجد بالأخضر ، ومسجد بذات الخطمي ، ومسجد بالألاء ، ومسجد بطرف البتراء ، من ذنب كواكب ، ومسجد بالشق ، شق تارا ، ومسجد بذى الجيفة ، ومسجد بصدر حوضي ، ومسجد بالحجر ، ومسجد بالصعيد ، ومسجد بالوادي ، اليوم ، وادي القرى ، ومسجد بالرقعة من الشقة ، شقة بنى عذرة ، ومسجد بذى المروة ، ومسجد بالقيفاء ، ومسجد بذى خشب .

* * *

أمر الثلاثة الذين خَلَفُوا وأمر المعذرين في غزوة تبوك

وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وقد كان تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : لا تكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة ، وأتاه من تخلف عنه من المنافقين فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، فصَفَحَ عنهم رسول الله ﷺ ، ولم يعذرهم الله ورسوله ، واعتزل المسلمون كلام أولئك نفر الثلاثة .

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٧ .

• حديث كعب عن تخلفه :

قال ابن إسحاق : فذكر الزهري محمد بن مسلم بن شهاب ، عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك أن أباه عبد الله ، وكان قائد أبيه حين أصيب بصره قال : سمعت أبي كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وحديث صاحبيه ، قال : ما تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط ، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر ، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحداً تخلف عنها ، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد غير قريش ، حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة ، حين تواقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت غزوة بدر هي أذكر عند الناس منها . قال : كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعنا في تلك الغزوة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا وري بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، واستقبل غزو عدو كثير ، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبطه وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ كثير . لا يجمعهم كتاب حافظ ، يعنى بذلك الديوان ، يقول لا يجمعهم ديوان مكتوب .

قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب ألا ظن أنه سيخفى له ذلك ، ما لم ينزل فيه وحى من الله وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار وأحبت الظلال ، فالناس إليها صعر^(١) فتجهز رسول الله ﷺ ، وتجهز المسلمون معه . وجعلت أعدو لا تجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة ، فأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى شمر الناس بالجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهazy شيئاً ، فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ، ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لا تجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى

(١) صعر : مفردة أصعر : وهو المائل ، ومنها قول الله تعالى : ﴿ ولا تصعر خدك

أسرعوا ، وتفطرت^(١) الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت ، فلم أفعل ، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم يحزنني أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً^(٢) عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبسه برداه ، والنظر في عطفه ، فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ .

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك ، حضرنى بئى^(٣) فجعلت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه رسول الله ﷺ غداً وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلم^(٤) قادمًا راح^(٥) عنى الباطل ، وعرفت أنى لا أنجو منه إلا بالصدق ، فأجمعت أن أصدقته ، وصبح رسول الله ﷺ المدينة ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك ، جاءه المخلفون ، فجعلوا يحلفون له ويختدون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وإيمانهم ، ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فسلمت عليه ، فتبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : تعاله فجئت أمشى ، حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ قال : قلت : إنى يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، لكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عني وليوشكن الله أن يسخطك عليّ ، لئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد عليّ فيه ، إنى لأرجو الله عقبى من الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدقت فيه فقم حتى يقضى الله فيك فقممت ، وثار معى رجال من بنى سلمة ، فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى

(١) تفطرت : فات . (٢) مغموصاً : مطعوثاً .

(٣) بئى : حزنى . (٤) أظلم : أشرف .

(٥) يقال : راح وانزاح : إذا ذهب ، والمصدر ريوحا وريحانا .

— ابن إسحاق — ٢٨٥ —

رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا أحد غيري ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل مقالتك ، وقيل لهما مثل ما قيل لك ، قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمرى ، من بنى عمرو بن عوف ، وهلال بن أبي أمية الواقفي ، فذكروا لى رجلين صالحين ، فيهما أسوة فصمت حين ذكروهما لى ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا حتى تنكرت لى نفسى والأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحبائى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج ، وأشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ ، فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى ، هل حرك شفثيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذ طال ذلك على من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام ، فقلت يا أبا قتادة ، أنشدك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت فناشدته ، فسكت عنى ، فعدت فناشدته ، فسكت عنى ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عينائى ، ووثبت فتسورت الحائط . ثم غدوت إلى السوق فبينما أنا أمشى بالسوق وإذا نبطى ^(١) يسأل عنى من نبط الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فجعل الناس يشيرون له إلى ، حتى جاءنى ، فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكتب كتاباً فى سرقة ^(٢) من حرير ، فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة . فالحق بنا نواسك . قال : قلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بى ما وقعت فيه أن أطمع فى رجل من أهل الشرك . قال : فعمدت بها إلى

(١) النبطى : مفرد من النبط ، وهم قوم من العجم كانوا يسكنون بين العراق

والأردن .

(٢) السرقة : الشقة (القطعة) من الحرير .

— ٢٨٦ — ابن إسحاق —

تنور (١) ، فسجرتة (٢) بها . فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله ﷺ يأتيني ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمر أن تعتزل امرأتك ، قال : قلت أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك ، فقلت لامرأتى : ألحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما هو قاض . قال : وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ ، فقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتركه أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك ، قالت : والله يا رسول الله ، ما به من حركة إلى ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تخوفت على بصره . قال : فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ لامراتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، قال : فقلت : والله لا أستأذنه فيها ما أدرى ما يقول رسول الله ﷺ لى فى ذلك إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب . قال فلبثنا بعد ذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة ، من حين نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ، ثم صليت الصبح ، صبح خمسين ليلة ، على ظهر بيت من بيوتنا ، على الحال التى ذكر الله منا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وضاقت على نفسى ، وقد كنت ابتليت خيمة فى ظهر سلع (٣) ، فكنت أكون فيها إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب ابن مالك ، أبشر ، قال فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج .

قال : وأذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب نحو صاحبى مبشرون ، وركض رجل إلى فرساً ، وسعى ساع من أسلم ، حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى ، نزع ثوبى ، فكسوتهما إياه بشارة ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، ثم انطلقت أتيمن رسول الله ﷺ وتلقانى الناس يبشرونى بالتوبة ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى

(١) التنور : الفرن .

(٢) سجرتة : أحرقتة بلهب النار .

(٣) سلع : جبل بالمدينة .

— ٢٨٧ — ابن إسحاق

دخلت المسجد ، ورسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله ، فحياني وهنأني ، ووالله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب بن مالك لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال لى ، ووجهه يبرق من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله . قال : وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر . قال : وكنا نعرف ذلك منه . قال : فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالى ، صدقة إلى الله ورسوله ، قال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قال قلت : إني ممسك سهمى الذى بخير ، وقلت : يا رسول الله ، إن الله قد لجأنى بالصدق ، وإن من توبتى إلى الله أن لا أحدث إلا صدقا ما حييت ، والله ما أعلم أحدا من الناس أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ذلك أفضل مما أبلانى الله ، والله ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وإني لارجو أن يحفظنى الله فيما بقى (١) .

وأنزل الله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) .

قال كعب : فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام كانت أعظم فى نفسى من صدق رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبتة ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تبارك وتعالى قال فى الذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، قال : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا

(١) أى فيما بقى من عمره .

(٢) سورة التوبة : الآيات ١١٧ - ١١٩ .

— ٢٨٨ — ابن إسحاق —

عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴿١﴾ .

قال : وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فعذرهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا ، حتى قضى الله فيه ما قضى ، فبذلك قال الله : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ (٢) .

وليس الذى ذكر الله من تخليفنا لتخليفنا عن الغزوة ولكن لتخليفه إيانا وأرجائه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه (٣) .

* * *

(١) سورة التوبة : الآيات ٩٥ - ٩٦ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١٨ .

(٣) وإنما اشتد غضبه على من تخلف عنه ، ونزل فيهم من الوعيد ما نزل حتى تاب الله على الثلاثة منهم ، وإن كان الجهاد من فروض الكفاية لكنه فى حق الأنصار خاصة كان فرض عين - أى واجب حتما لا يسقط إذا قام به البعض - وعليه بايع الأنصار النبى ﷺ ، ألا تراهم يقولون يوم الخندق ، وهم يرتجزون :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً .

ومن تخلف منهم يوم بدر إنما تخلف ، لأنهم خرجوا لأخذ عير ولم يظنون أن سيكون قتال ، فلذلك كان التخلف عن رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة كبيرة لأنها كالتكت لبيعهم .

أمرٌ وفدٌ ثقيف وإسلامها فى شهر رمضان سنة تسع

قال ابن إسحاق : وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك فى رمضان ، وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف .

وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم ، اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفى ، حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ - كما يتحدث قومه - إنهم قاتلوك ، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذى كان منهم ، فقال عروة : يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم (١) .

قال ابن إسحاق : وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً : فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه ، لمنزلته فيهم ، فلما أشرف لهم على عليه له ، وقد دعاهم إلى الإسلام ، وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهم فقتله . فترغم بنو مالك أنه قتله رجل منهم يقال له أوس بن عوف ، أخو بنى سالم ابن مالك . وترغم الأحلاف أنه قتله رجل منهم ، من بنى عتاب بن مالك ، يقال له وهب بن جابر ، فقتل لعروة : ما ترى فى دمك ؟ قال : كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلى ، فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرحل عنكم ، فادفنونى معهم ، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه : إن مثله فى قومه لكمثل صاحب ياسين فى قومه (٢) .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا .

(١) قال ابن هشام : ويقال : من أبصارهم .

(٢) يحتمل قوله ﷺ ، كمثل صاحب ياسين أن يريد به المذكور فى سورة ياسين ، الذى قال لقومه : ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ فقتله قومه ، واسمه حبيب بن مرمى ، ويحتمل أن يريد صاحب إلياس ، وهو اليسع ، فإن إلياس يقال فى اسمه : ياسين أيضاً ، وقال الطبرى : وهو إلياس بن ياسين ، وفيه قال تبارك وتعالى : ﴿ سلام على إل ياسين ﴾ .

— ٢٩٠ — ابن إسحاق —

حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس : أن عمرو بن أمية ، أخا بني علاج كان مهاجراً لعبد ياليل بن عمرو ، الذي بينهما شيء ، وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب ، فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره .

ثم أرسل إليه إن عمرو بن أمية يقول لك : أخرج إلى قال : فقال عبد ياليل للرسول ويلك ! أعمرو أرسلك إلى ؟ قال : نعم ، وها هو ذا واقفا في دارك ، فقال : إن هذا لشيء ما كنت أظنه لعمرو كان أمنع في نفسه من ذلك ، فخرج إليه ، فلما رآه رحب به فقال له عمرو : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، فقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا في أمركم فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها ، وقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ^(١) ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع فأتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو ابن عمير ، وكان سن ^(٢) عروة بن مسعود ، وعرضوا ذلك عليه ، فأبى أن يفعل ، وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة . فقال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجلاً ، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة ، فبعثوا مع عبد ياليل . الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب ، ومن بنى مالك عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان ، أخا بنى يسار ، وأوس بنى عوف ، أخا بنى سالم وئير بن خرشة بن ربيعة ، أخا بنى الحارث فخرج بهم عبد ياليل ، وهو ناب القوم ^(٣) وصاحب أمرهم ، ولم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة بن مسعود ، لكي يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه .

فلما دنوا من المدينة ، نزلوا قناة . فألفوا بها المغيرة بن شعبة ، يرعى في نوبته

(١) السرب : القطيع من الحيوان أو الفريق من الإنسان أو جماعة النخل وهو أيضاً الطريق . والقلب والصدر .

(٢) أى فى سنه أو مثله فى السن .

(٣) ناب القوم : سيدهم والمدافع عنهم .

— ابن إسحاق — ٢٩١ —

ركاب أصحاب رسول الله ﷺ وكانت رعيتهما عند الثقفين ، وضبر (١) يشتد .
 ليبشر رسول الله ﷺ ، بقدمهم عليه فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على
 رسول الله ﷺ فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن
 يشترط لهم رسول الله ﷺ شروطا ، ويكتبوا من رسول الله ﷺ كتابا في قومهم
 وبلادهم وأموالهم فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول
 الله ﷺ ، حتى أكون أنا أحدثه ، ففعل المغيرة ، فدخل أبو بكر على رسول الله
 ﷺ . فأخبره بقدمهم عليه ، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه ، فروح الظهر معهم ،
 وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية ، ولما قدموا
 على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده ، كما يزعمون ، فكان
 خالد بن سعيد بن العاص ، هو الذي يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ ، حتى
 اكتتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده ، وكانوا لا يطعمون طعاما
 يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد ، حتى أسلموا وفرغوا من
 كتابهم ، وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ، وهى اللات ،
 لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة
 سنة ، ويأبى عليهم حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم ، فأبى عليهم أن يدعها شيئا
 مسمى ، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم
 وذرائعهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى رسول
 الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها ، وقد كانوا
 سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة ، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ،
 فقال رسول الله ﷺ : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة ،
 فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه ، فقالوا : يا محمد ، فسئلتيكها ، وإن كانت
 دناءة .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم ، أمر عليهم عثمان بن أبى
 العاص ، وكان من أحدثهم سنا ، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام ،
 وتعلم القرآن . فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ يا رسول الله ، إني قد رأيت هذا
 الغلام منهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام ، وتعلم القرآن .

• قصة بلال مع ثقيف :

قال ابن إسحاق : وحدثني عيسى بن عبد الله بن عطية بن سفيان بن ربيعة الثقفي ، عن بعض وفدهم . قال : كان بلال يأتينا - حين أسلمنا وصمنا مع رسول الله ﷺ ما بقى من رمضان - بفطونا وسحورنا من عند رسول الله ﷺ ، فيأتينا بالسحور ، وإنا لنقول إنا لنرى الفجر قد طلع ، فيقول : قد تركت رسول الله ﷺ ، يتسحر لتأخير السحور ، ويأتينا بفطونا ^(١) ، وإنا لنقول : ما نرى الشمس كلها ذهبت بعد ، فيقول : ما جئتمكم حتى أكل رسول الله ﷺ ، ثم يضع يده في الجفنة ، فيلتقم منها .

قال ابن إسحاق : وحدثني سعيد بن أبي هند ، عن مطرف بن عبد الله الشخير ، عن عثمان بن أبي العاص ، قال : كان من آخر ما عهد إلى رسول الله ﷺ حين بعثني على ثقيف أن قال : يا عثمان ، تجاوز في الصلاة ، وأقدر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير ، والصغير ، والضعيف وإذا الحاجة ^(٢) .

• هدم اللات :

قال ابن إسحاق : فلما فرغوا من أمرهم ، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، في هدم الطاغية ^(٣) ، فخرجنا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بما له

(١) قال ابن هشام : بفطونا وسحورنا .

(٢) وهذا من رحمة الرسول ﷺ أن يوصى في آخر حياته بأمر مهم حتى لا تحدث فتنة بعده ، وهو عدم ، الإطالة في الصلاة حتى لا يثقل على المسلمين فإن فيهم الضعيف والكبير والمريض وذلك للإمام في صلاة الجماعة ، ولكن بشرط عدم الإخلال بشروط الصلاة ، مع حسن الترتيل وإعطاء كل ركن في الصلاة حقه .

(٣) وكان صنماً لثقيف ، وهي صخرة مربعة ، وكانت سدنتها من ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها بناء ، فكانت قریش ، وجميع العرب تعظمها ، وكانت في موضع « منارة » مسجد الطائف اليسرى ، انظر تفسير القرطبي ٩ / ٦٥٠٠ ط . دار الغد العربي .

— ابن إسحاق — ٢٩٣ —

بذى الهدم ، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها ^(١) يضربها بالمعول ^(٢) ، وقام قومه
دونه بنو معتب ، خشية أن يُرمى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف
حسراً ^(٣) يبكين عليها ويقلن :

لتبكين دفاع أسلمها الرضاع ^(٤) لم يُحسنوا المصاع ^(٥)

قال ابن إسحاق : يقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس ، واهاً لك : أهاً
لك ، فلما هدمها المغيرة ، وأخذ مالها وخُلِيها ^(٦) أرسل إلى أبي سفيان وخُلِيها
مجموع ، ومالها من الذهب والجزع .

• إسلام أبي مليح وقارب :

وقد كان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود قدما على رسول الله ﷺ قبل
وفد ثقيف ، حين قُتل عروة يريدان فراق ثقيف ^(٧) ، وأن لا يجامعاهم على شيء
أبدأ فأسلما فقال لهما رسول الله ﷺ : توليا من شئتما ، فقالا : نتولى الله
ورسوله فقال رسول الله ﷺ : وخالكما أبا سفيان بن حرب ، فقالا : وخالنا أبا
سفيان بن حرب .

فلما أسلم أهل الطائف ووجه رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة إلى هدم
الطاغية ^(٨) سأل رسول الله ﷺ أبو مليح بن عروة أن يقضى عن أبيه عروة ديناً كان

(٢) المعول : الفأس العظيمة .

(١) علاها : صعد فوقها .

(٣) حسراً : أى عرايا الرءوس .

(٤) الرضاع : اللثام .

(٥) المصاع : القتال بالسيوف .

(٦) أى ما فيها من ذهب وقضة .

(٧) أى يريدان أن يدخلوا فى الإسلام ويفارقا قومهما المشركين .

(٨) أى الصنم الذى كانت تعبد الطائف وهى اللات وكان صنم ثقيف بالطائف ، وقال
عنه الكلبي : كان رجلاً من ثقيف يقال له صيرمة بن غنم . وقال ابن عباس ، وابن الزبير
ومجاهد وحמיד وأبو صالح : كان رجلاً يلت السوق للحاج - ذكره البخارى عن ابن عباس -
فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . وقال ابن عباس : كان يبيع السوق - والسمن عند
صخرة ويصبه عليها ، فلما مات ذلك الرجل عبت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب
السوق ، وقال مجاهد : كان رجلاً فى رأس جبل له غنمة يسلى منها السمن ويأخذ منها =

— ٢٩٤ — ابن إسحاق —

عليه من مال الطاغية ، فقال له رسول الله ﷺ : نعم ، فقال له قارب بن الأسود ، وعن الأسود يا رسول الله فاقضه ، وعروة والأسود أخوان لأب وأم (١) ، فقال رسول الله ﷺ : إن الأسود مات مشركاً فقال قارب لرسول الله ﷺ يا رسول الله ، لكن تصل مسلماً ذا قرابة ، يعنى نفسه إنما الدين على ، وإنما أنا الذى أطلب به ، فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود من مال الطاغية ، فلما جمع المغيرة مالها قال لأبى سفيان : إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقضى عن عروة والأسود دينهما ، فقضى عنهما .

كتابه عليه السلام لثقيف : وكان كتاب رسول الله ﷺ الذى كتب لهم :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبى ، رسول الله ، إلى المؤمنين : إن عضاه (٢) وج وصيده لا يعضد (٣) ، من وجد يفعل شيئاً من ذلك ، فإنه يُجلد وتترع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به إلى النبى محمد ، وإن هذا أمر النبى محمد رسول الله .

وكتب خالد بن سعيد : بأمر الرسول محمد بن عبد الله ، فلا يتعده أحد ، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله ﷺ .

* * *

= الأقط - لبن محمض يجمد ويطحخ به - ويجمع رسلها ثم يتخذ منها حيساً فيطعم الحاج ، وكان بيطن نخلة فلما مات عبده وهو اللات .

انظر تفسير القرطبي ٩ / ٦٥٠ ط . دار الغد العربى ، المعجم الوجيز مادة الأقط ص ٢١ .

(١) أى إنهما أخوان شقيقان .

(٢) العضاه : شجر له شوك .

(٣) لا يعضد : لا يقطع أى أنه حرام على غير أهله كتحريم مكة والمدينة ، وقيل وج . هى الطائف ، وقيل إنها واد بها .

حَجُّ أَبِي بَكْرٍ بِالنَّاسِ سَنَةَ تِسْعٍ وَإِخْتِصَاصُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِتَأْدِيَةِ أَوَّلِ بَرَاءَةِ عَنْهُ

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان وشوالاً وذا القعدة ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع ، ليقم للمسلمين حجهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم . فخرج أبو بكر رضيه الله عنه ومن معه من المسلمين .

ونزلت براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد ، الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم : أن لا يُصدَّ عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام ، وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل العرب خصائص ، إلى آجال مسماة ، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه في تبوك ، وفي قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون منهم من سمى لنا ومنهم من لم يُسم لنا ، فقال عز وجل : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ ^(١) أي لأهل العهد العام من أهل الشرك : ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ﴾ وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله ﴿ أي بعد هذه الحجة : ﴿ فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين ﴾ أي العهد الخاص إلى الأجل المسمى : ﴿ ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ﴾ : يعني الأربعة التي ضرب لهم أجلاً ، : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم

(١) الآيات من سورة التوبة : ١ - ٥ .

— ٢٩٦ — ابن إسحاق —

واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم * وإن أحد من المشركين * : أى من هؤلاء الذين أمرتك بقتلهم : * استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون * (١) .

ثم قال تعالى : * كيف يكون للمشركين * الذين كانوا هم وأنتم على العهد العام أن لا يخيفوكم ولا تخيفوهم في الحرمه ، ولا فى الشهر الحرام * عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام * وهى قبائل من بنى بكر الذين كانوا دخلوا فى عقد قريش وعهدهم يوم الحديبية إلى المدة التى كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فلم يكن نقضها إلا هذا الحى من قريش ، وهم بنو الدليل من بنى بكر بن وائل الذين كانوا دخلوا فى عقد قريش وعهدهم ، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض من بنى بكر إلى مدته * فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين * .

ثم قال تعالى : * كيف وإن يظهروا عليكم * أى المشركين الذين لا عهد لهم إلى مدة من أهل الشرك العام : * لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة * .
والذمة : العهد . قال الأجدع بن مالك الهمداني ، وهو أبو مسروق الأجدع الفقيه :

وَكَانَ عَلَيْنَا ذِمَّةٌ أَنْ تَجَاوَزُوا مِنْ الْأَرْضِ مَعْرُوفًا إِلَيْنَا وَمُنْكَرًا

وهذا البيت فى ثلاثة آيات له ، وجمعها : ذمم .

* يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون * اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * أى قد اعتدوا عليكم * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصلُ الآيات لقوم يعلمون * (٢) .

اختصاص على بتأدية براءة : قال ابن إسحاق : وحدثنى حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيفة عن أبى جعفر محمد بن على رضوان الله عليه ، أنه قال : لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج ،

(١) سورة التوبة : ٥ ، ٦ وهذه عدالة ورحمة الإسلام حتى مع المشرك .

(٢) سورة التوبة : ٧ - ١٠ .

— ابن إسحاق — ٢٩٧ —

قيل له : يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر ، فقال : لا يؤدى عني إلا رجل من أهل بيتي ، ثم دعا على بن أبي طالب رضوان الله عليه ، فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ^(١) . وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته ، فخرج على بن أبي طالب رضوان الله عليه على ناقة رسول الله ﷺ العضاء ، حتى أدرك أبا بكر بالطريق فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضيا . فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج ، التي كانوا عليها في الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام على بن أبي طالب ﷺ ، فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ ، فقال : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته : وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى ما منهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته . فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ثم قدما على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى .

● الأمرُ بجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ :

قال ابن إسحاق : ثم أمر الله ﷺ بجهاد أهل الشرك ، ممن نقض من أهل العهد الخاص ، ومن كان من أهل العهد العام ، بعد الأربعة الأشهر التي ضرب لهم أجلا إلا أن يعدو فيها عاد منهم فيقتل بعدائه ، فقال تعالى : ﴿ لَا تَقَاتِلُونَهُمْ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُواكُمْ أُولَٰئِكَ أَنْتُمْ تُخْشَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ * وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ ﴿٢﴾ : أى من بعد ذلك

(١) أى من أول سورة براءة وهى سورة التوبة .

(٢) سورة التوبة : ١٣ - ١٥ .

— ٢٩٨ — ابن إسحاق —

: ﴿ على من يشاء والله عليم حكيم ﴾ * أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً والله خير بما تعملون ﴿ (١) .

● القرآن يرد على قريش ادعاءهم عمارة البيت :

قال ابن إسحاق : ثم ذكر قول قريش : إنا أهل الحرم ، وسقاة الحاج ، وعمّار هذا البيت فلا أحد أفضل منا ، فقال : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ (٢) : أى أن عمارتكم ليست على ذلك ، وإنما يعمر مساجد الله أى من يعمرها بحقها : ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ : أى فأولئك عمّارها : ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ وعسى من الله : حق .

ثم قال تعالى : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستتون عند الله ﴾ (٣) ثم القصة حتى انتهى إلى ذكر حنين وما كان فيه وتوليهم عن عدوهم وما أنزل الله تعالى من نصره بعد تخاذلهم ، ثم قال تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة ﴾ (٤) وذلك أن الناس قالوا : لتتقطع عنا الأسواق ، فتهلكن التجارة ، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق ، فقال الله عز وجل : ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ أى من وجه غير ذلك ﴿ إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿ (٥) .

أى ففى هذا عوض مما تخوفتم من قطع الأسواق ، فعرضهم الله بما قطع عنهم بأمر الشرك ، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب ، من الجزية .

(١) الآيات السابقة من سورة التوبة : الآيات ١٥ - ١٦ .

(٣) سورة التوبة : ١٩ .

(٢) سورة التوبة : ١٨ .

(٥) سورة التوبة : الآيات ٢٨ - ٢٩ .

(٤) سورة التوبة : ٢٨ .

— ابن إسحاق — ٢٩٩ —

ما نزل في أهل الكتابين : ثم ذكر أهل الكتابين بما فيهم من الشر والفرية عليه ، حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ إن كثيراً من الأجر والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (١) .

ما نزل في النسيء : ثم ذكر النسيء ، وما كانت العرب أحدثت فيه . والنسيء ما كان يُحل مما حرم الله تعالى من الشهور ، ويحرم مما أحل الله منها : فقال : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ (٢) : أى لا تجعلوا حرامها حلالاً ، ولا حلالها حراماً : أى كما فعل أهل الشرك ﴿ إنما النسيء ﴾ الذى كانوا يصنعون ﴿ زيادة في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

ما نزل في تبوك : ثم ذكر تبوك وما كان فيها من ثاقل المسلمين عنها ، وما أعظموا من غزوه الروم ، حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى جهادهم ، نفاق من نافق من المنافقين ، حين دُعوا إلى ما دعوا إليه من الجهاد ، ثم ما نعى عليهم من إحدائهم في الإسلام ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ . ثم القصة إلى قوله تعالى : ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾ .

ما نزل في أهل النفاق : ثم قال تعالى لنبى ﷺ ، يذكر أهل النفاق : ﴿ لو كان عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ : أى إنهم يستطيعون : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ . إلى قوله : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يغفونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ﴾ .

(١) سورة التوبة : الآية ٣٤ .

(٢) الآيات إلى نهاية الصفحة من سورة التوبة : ٣٦ : ٤٧ .

٣٠٠ — ابن إسحاق —

قال ابن إسحاق : وكان الذين استأذنوه من ذوى الشرف ، فيما بلغنى ، منهم عبد الله بن أبي بن سلول ، والجد بن قيس ، وكانوا أشراقاً فى قومهم ، فنبطهم الله لعلمه أنهم إن يخرجوا معه ، فيفسدوا عليه جنده وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم ، وطاعة فيما يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم . فقال تعالى : ﴿ وفيكم سمعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴿ : أى من قبل أن يستأذنوك : ﴿ وقلّبوا لك الأمور ﴾ : أى ليخذلوا عنك أصحابك ويردوا عليك أمرك ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا ﴿ ^(١) ، وكان الذى قال ذلك فيما سمى لنا الجد بن القيس أخو بنى سلمة حين دعاه رسول الله ﷺ إلى جهاد الروم ثم كانت القصة إلى قوله تعالى : ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلأ لولوا إليه وهم يجمعون ﴾ ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴿ ^(٢) : أى إنما نيتهم ورضاهم وسخطهم لدنياهم .

• ما نزل فى أصحاب الصدقات :

ثم بين الصدقات لمن هى ، وسمى أهلها ، فقال : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ ^(٣) .

• ما نزل فيمن آذوا الرسول ﷺ :

ثم ذكر غشهم وأذاهم للنبي ﷺ ، فقال : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ ^(٤) وكان الذى يقول تلك المقالة فيما بلغنى ، نبتل بن الحارث أخو بنى عمرو بن عوف ، وفيه نزلت هذه الآية ، وذلك أنه كان يقول : إنما محمد ﷺ من حدثه شيئاً صدقه . يقول الله تعالى : ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ ^(٥) : أى يسمع الخير ويصدق به .

(١) وما بعدها من سورة التوبة : الآية ٥٩ . (٢) سورة التوبة : ٥٧ - ٥٨ .

(٣) سورة التوبة : ٦٠ . (٤) سورة التوبة : ٦١ . (٥) سورة التوبة : ٦٢ .

